مصراته في كتب الرحالة والمؤرخين
ورقة عمل بعنوان:
جانب من حياة الشيخ أحمد زروق
(ما بين فاس المولد ومصراتة المقام)

سعاد مصطفى عبدالله
قسم التاريخ الإسلامي / مرحلة الدكتوراة

مقدمة: تنوعت العلوم في الدولة الإسلامية وشق المسلمون طرق العلم المختلفة وأبدعوا فيها، وقد انتشرت المعارف المتنوعة، في ربوع الأقاليم الإسلامية، وتفرعت، وصار لكل علم رواده وطلبته، فكان من علماء العلوم الدينية الشيخ أحمد زروق، الذي ولد في دولة اهتمت بالعلوم اهتماما كبيرا رغم الفتن الثورات التي كانت تنتشر فيها، وقد اتخذ الشيخ موقفا من هذه الفتن أدى به إلى ترك وطنه الأم، والبحث عن وطن آخر يكون بمثابة الوطن الثاني له.

وتكمن **أهمية** هذه الورقة في دراسة التحولات التي أدت بالشيخ زورق للبحث عن وطن آخر للعيش فيه بعد ترك وطنه الأول، مع إيجاد أساليب ربطت بين أحوال فاس ومصراتة من الناحية الثقافية والاجتماعية التي أحاطت بالشيخ زروق.

أما **أهداف** الورقة فهي التعرف على الوضع الداخلي لفاس قبيل مغادرة الشيخ زروق لها، والظروف التي جعلت الشيخ زروق يقرر مغادرة وطنه ، وترك مكان ولادته وطفولته وشبابه، ومعرفة علاقة الشيخ زروق بالمجتمع في فاس ثم في مصراتة.

و**المنهج** المتبع المنهج السردي، الذي يعتمد على جمع المعلومات من مصادرها، وقراءة نصوصها للخروج بخلاصة ونتائج.

تمهيد: تعتبر بادية فاس(1) منذ الفتح الإسلامي الأول في القرن الأول الهجري، القرن السادس الميلادي معبرا رئيسا للجيوش الإسلامية الفاتحة؛ ولهذا السبب اعتنق أبناؤها الإسلام مبكرا، وتقدموا طلائع الجيوش الإسلامية بجنوب المغرب أو بعدوة الأندلس تحت قيادة الفاتحين الأوائل، فقد امتزج سكان هذه القبائل بالعرب الفاتحين عن طريق المعايشة والمصاهرة، وأول إشارة تاريخية لقبائل هذه المنطقة عند المؤرخين في هذه الفترة جاءت في عهد يوسف بن تاشفين، عندما غزا قبائل جبال ورغة، ففتحها سنة 458ه/1065م ، وأدخلها تحت حكم المرابطين، واتخذ من قبائلها الأجناد والحلفاء، أما في عهد الموحدين فقد احتلت هذه القبائل دورا عظيما في بناء الدولة الموحدية والدفـــاع عنها طيلة مراحلها، وفي عهد المرينيين والوطاسيين(2) بدا الدور السياسي والعسكري لقبائل ورغة، فكان منهم والأجناد

1-فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش، وهي مدينتان : عـــــــــــدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، أسست سنة 192، 193/ في ولاية إدريس بن إدريس. ياقوت الحموي ، شـــهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي ، دار صادر ، بيروت ، 1397ه/ 1977م، مج4، ص230.

2-الوطاسيين فخذ من بني مرين. السلاوي، أبي العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعـــــــي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 1315ه/ 1900م ، اعتنى به محمد عثمان، دار الكتب العلمية ، بيروت، ج1، ص415 .

الأجناد، وتصدر أبناء هذه القبائل المناصب الدينّية والإفتاء في فاس (1).

أما في القرن التاسع الهجري، القرن الخامس عشر الميلادي، وتحديدا في الأندلس كان المسلمون يحاولون الثبات في المعقلين الأخيرين اللذين ظلا في حوزتهم: غرناطة ومالقة(2). غير أن فقد الثقة والخلافات بين أمرائهم لم يهيئ لهم فرصة كسب نصر عسكري على الأسبان. فسقطت الأندلس في أيدي الأسبان عام 897ه/1492م. وقد أثرت هذه الحوادث في بعض مظاهر الحياة في المغرب بصفة عامة، وفي فاس على وجه التخصيص، تلك العاصمة الشهيرة، حيث بلغ الوضع السياسي من الاضطراب والارتباك إلى درجة أنه ما كان في إمكان السلاطين فرض النظام والقانون على رعاياهم، أو حتى التخلص من الفتن في أغلب أنحاء البلاد(3).

أولا: أسباب هجرته لموطنه.

1- ميلاده ونشأته : الشيخ زروق، هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المالكي وقيل: إن بُرنس تنسب إلى عرب بالمغرب، والصحيح أنها تنسب إلى قبيلة البرانس البربرية المشهورة بالمغرب بين مدينة فاس وتازة (4).

يتحدث الشيخ زروق في كناشه(5) عن يوم ولادته، وعن اليتم الذي أصابه خلالها، وعمن كفله، وعن نشأته، فيقول: "ولدت يوم الخميس طلوع شمس ثامن وعشرين من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة، وتوفيت أمي يوم السبت بعده، وأبي يوم الثلاثاء بعده، كلاهما في سابعي، فبقيت بعين الحق بين جدتي الفقيهة (أم البنين)، فكفلتني حتى بلغت العشر، وحفظت القرآن وتعلمت صناعة الخرز"(6)، وكان ذلك عندما بلغ سن التاسعة، ليجمع

1- محمد إدريس طيب حفيد الشيخ أحمد زورق، المدرسة الزروقية الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، تحقيق نسبه ومدرسته الصوفية، طبعة مزيدة ومنقحة ، كتاب- ناشرون ، بيروت – لبنان، ط2، 2008م، ص48 .

2- مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية . ياقوت الحموي ، المصدر السابق، مج5، ص 43 .

3-علي فهمي خشيم ، أحمد زروق والزروقية ، دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة، دار المدار الإسلامي، ط2، 2002م، ص18.

4- محمد إدريس طيب حفيد الشيخ أحمد زورق، المدرسة الزروقية الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، تحقيق نسبه ومدرسته الصوفية، ص30، 72.

5-الكناشة عند المغاربة: أوراق شخصية غير مهيأة للنشر. محمد إدريس طيب، المرجع السابق، ص24.

6- التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ت 963ه/ 1039م، عناية وتقديم: عبدالحميد عبدالله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس- ليبيا، ط2، 2000م، ص130. علي فهمي خشيم ، المرجع السابق، ص28، 29، 32,30 .

بين العلم والصناعة(1).

أتم الشيخ أحمد زروق حفظ القرآن الكريم وعمره عشر سنين، وعندما بلغ السادسة عشر أخذ العلم عن جملة من الشيوخ (2)، وكـــان معظم أساتذة زورق الذي درس عليهم في مرحلته الأولى ينتمون إلى قبيلة بني ورياكل أو إلى قبيلة مجاورة لها(3).

وهو شيخ الطريقة وإمام الحقيقة. أخذ عن أئمة من أهل المشرق والمغرب وهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة(4).

2- صفاته : كان الشيخ زروق عالما، محققا، ورعا، زاهدا، شديد النكير على البدع، آية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقافا عند حدود العلم وأحكام الشرع وآدابه، حتى قيل فيه: إنه محتسب الصوفية(5)، فهو الإمام العالم، الفقيه، المحدث، الصوفي، الولي، الصالح، الزاهد، القطب، الغوث، العارف بالله، الحاج الرحلة المشهورة شرقا وغربا، ذو التصانيف العديدة، والمناقب الحميدة، والفوائد العتيدة، وله كرامات عديدة(6).

1- أحمد زورق، أبو العباس، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، ت899ه/ 1493م، دراسة وتحقيق وتخريج: عبدالمجيد خيالي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،(د. ت)، ص8 .

2-منهم: خاله أحمد بن محمد الفشتالي، وعلي السطي، وعبد الله الفخار، وأخذ القرآن بحرف نافع على جماعة منهم: محمد بن قاسم بن أحمد القوري، والزرهوني، وعبد الله المجاصي، والأستاذ الصغير عبد الله التجيبي، وأخذ أيضا التصوف والتوحيد على الشيخ عبد الرحمن المجدولي، والشيخ الإمام عبد الرحمن الثعالبي، والولي ابراهيم التازي، والمشدالي، والشيخ حلولو، والسراج الصغير، والرصاع، وأحمد بن سعيد الحباك، والحافظ التنسي، والإمام السنوسي، وابن زكريا، وأبو مهدى عيسى الماواسي، وأخذ بالشرق عن جماعة أيضا منهم: النور السنهوري، والحافظ الديمي، والحافظ السخاوي، وولي الله الشهاب الإبشيطي، والجوجري، وصحب القطب أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، والبدل أبي عبد الله محمد الزيتوني، وقد صحب من الشيوخ -كما ذكر جماعة - من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه وفقير. التنبكتي، المصدر السابق، ص130-132. علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 33، 34. عبد الله بن عبد القادر التليدي، المطرب في مشاهير أولياء المغرب، شركة البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، دار الأمان ، الرباط- المغرب، ط4، 1424ه/2003م، ص 147 . إدريس بو وانو ، ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زورق، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ص33.

3- محمد إدريس طيب ، المرجع السابق ، ص48.

4- محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ت1360ه/1941م، خرج حواشيه وعلق عليه عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص386، 387.

5-عبد الله التليدي، المرجع السابق، ص 148.

6-التنبكتي ، المصدر السابق ، ص131، 132 .

3- عصره: كان عصر الشيخ أحمد زروق مشحونا بالصراعات السياسية والاجتماعية والدينية، وهو عصر المريني والوطاسي، فقد عاصر الشيخ زروق ضعف الدولة المرينية بالمغرب، ودويلة بني الأحمر بالأندلس، وبني زيان بالجزائر، والحفصيين في تونس. هذا مع ظهور الفتن والتآمر والتناحر بين ملوك هذه الدويلات الضعيفة ؛ لاهتمامهم بمصالحهم ومصالح أسرهم الحاكمة، والحاشية المحيطة بهم، وتضييع مصالح شعوبهم وأوطانهم، فقد شاهد الشيخ زروق في الفترة الممتدة ما بين سنة 846ه/1442م إلى سنة 869ه/1464م الآثار السلبية للصراع السياسي، الذي كان دائرا بين الأقطار المغربية بعد أفول نجم المرينيين، وضعف دولتهم، وانحصار سلطانهم السياسي؛ ليقتصر على المغرب الأقصى؛ بل إن هذا الضعف سرعان ما امتد إلى المغرب الأقصى عندما اعتلى كرسي الحكم ملوك ضعاف استبد بهم الوزراء، مع ظهور حركات تمرد خارجة عن نفوذ الحكم (1) .

جعلت هذه الفوضى المجال فسيحا أمام البرتغاليين والأسبانيين ليقتطعوا بعض المدن الساحلية ، ويجعلوها رأس رمح لمحاولة القضاء على المغرب السياسي، الذي قام من قبل بدور فاعل في الدفاع عن الإسلام بالأندلس، وسواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، أما الفترة الممتدة ما بين 870-874ه/1465-1469م فقد شهد نهاية الدولة المرينية، حيث قتل عبد الحق المريني، وبايع أهل فاس للجوطي ، وحاربه محمد الشيخ الوطاسي صاحب أصيلة له. فقد مرت بحياة الشيخ زروق السنوات العصيبة؛ إذ كان ما بين سنتي 874- 884ه/1465-1475م، الضعف السياسي الذي خيم على معظم الدول الإسلامية، وقد شاهد ذلك الشيخ أحمد زروق أثناء رحلته إلى الحج، حكام ضعاف في الجزائر، وتونس، وطرابلس، وبرقة، والمماليك بمصر، وأمراء ضعاف بالحجاز، وقد فوجئ – وهو في طريق عودته إلى لمغرب – باعتلاء محمد الشيخ الوطاسي سلطان فاس، مع ضعف داخلي شديد، واستيلاء البرتغال على مدينة أصيلة، وظهور إمارة بني راشد في الشاون بشمال المغرب، واحتفاظ المرينيين المنهزمين أمام الوطاسيين بإمارة دبدو شرق المغرب. هذا مع ظهور الفتن والفوضى والاضطرابات في أكثر القبائل المغربية، وظهور المغامرين ذوي الطموحات السياسية هنا وهناك؛ ولعل ذلك كان من العوامل التي دفعته إلى إعلان تجرده وانقطاعه عن الحياة السياسية، وتفرغه لنشر العلم، حيث وضع أسس مدرسته الفقهية الصوفية ببلدة بجاية(2) ببادية فاس. فقد كان عصر السلطان أبي سعيد المريني الذي توفي823ه/1420م عصر قلاقل وفتن. حيث أن الصـــــراع على الحكم بين

1-عبد الله التليدي ، المرجع السابق، ص78.

2-بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري سنة 457ه/ 1050م. ياقوت الحموي ، المصدر السابق، مج 1 ، ص339.

أبي سعيد وعمه أبي حسون البادیسي-الذي كان حاكما على مكناس(1)- أدى إلى خراب أرجاء البلاد، فاضطربت الأحوال في المنطقة الممتدة من نهر أبي رقراق إلى القصر الكبير، وأصاب الدمار أزيد من عشرة مدن، وأصبحت المنطقة خاوية إلى أن أسكن فيها أبو سعيد قبائل الشاوية(2).

كانت حياة الشيخ زروق في عصر ازدهار الحياة العلمية والفكرية بالمغرب الأقصـــــى، وعاش في مدينةٍ هي أعرق مدن المغرب في الجانب العلمي؛ إذ كـــــــــانت تقع فيها أكبر جامعة من جامعات العالم الإسلامي، وهي جـــــــامعة القرويين، فتتلمذ على يد علماء وفقهاء، يأخذ الدروس والعبر عنهم، ويعد الشيخ القوري الذي توفي سنة882ه/ 1477م، أقرب أساتذته ومشايخه إلى نفســــــــه، وأبعدهم أثرا في روحـــــه وفكره، وقد قدَّر القوري مواهبه العالية، فتولاه بالجدب والرعاية، وقربه إليه. ومن شيـــــوخه الشيخ ابن عباد، الذي مثَّل القدوة التي تأســــــــــى بها الشيخ زروق في سيرته، وسار على سننه في حركته الإصلاحية، فقد كان أشهر المصـــــــلحين بالمغرب خـــــلال القرن الثامن الهجري، القرن الرابع عشر الميلادي وهـــــو تخرج مثله في مدارس فـــــــاس المرينية، وتحول من الفقه إلى التصوف(3).

4-أسباب مغادرته وطنه: كان الشيخ زروق سنة 869ه/1464م شخصية معروفة بالمدينة في شبابه، كما كان معارضا لبعض قرارات السلطة الحاكمة، ومع ذلك فهو لم يؤيد ثورة أستاذه أبو فارس الورياكلي(4)، ولم يشارك في خلع السلطان عبدالحق المريني(5)، بل كان على العكس من ذلك فقد اتخذ موقفا مخالفا للثائرين وعارضهم، فقد رفض إمامة الورياكلي والصلاة خلفه، فلم يكن موقف الشيخ زروق من أجل السلطان؛ بل كان نابعا من مذهب المسالمة الصوفية، الذي يستنكف سفك الدماء، وبخاصة دماء المسلمين. حتى تُحفظ وحـــــدة

1-مكناسة : مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق، ومنها إلى فاس مرحلة واحدة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 5، ص181 .

2- عبد الله التليدي ، المرجع السابق، ص79 ،80 .

3- إدريس بو وانو ، المرجع السابق ، ص32، 33، أحمد زروق ، فوائد من كناش ، ت 899ه/1493م ، تحقيق: محمد إدريس طيب، حفيد الشيخ أحمد زروق، ص38 .

4- خطيب القرويين أبو فارس عبدالعزيز ين موسى الورياكلي و كانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، خلع طاعة السلطان عبد الحق وبايع الشريف أبي عبدالله الحفيد. السلاوي ، المصدر السابق، ج 4، ص99 .

5- عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس بن أبي سالم المرين، آخر ملوك بني عبد الحق، وهو أطولهم، مدة وأعظمهم محنة، وشدة، وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جدا وتداعى، وكان التصرف للوزراء والحجاب، قتل سنة 869ه/1465م، وانقرضت بملكه دولة بني عبد الحق المريني. أحمد زروق، فوائد من كناش، ص40 ، السلاوي ، المصدر السابق، ج4، ص 95، 100.

المسلمين في وجه الأعداء بطاعة الأمراء والملوك، فقد رفض الشيخ زروق مقابلة السلطان الحفيد والمثول بين يديه؛ لأنه يعده حاكما غير شرعي؛ إذ جاء إلى الحكم إثر ثورة دموية، وكان على الشيخ زروق أن يتحمل تبعات مواقفه، التي أدت إلى اتهامه باليهودية أو الجاسوسية وكان الشيخ زروق يعي خطورة هذا الاتهام(1).

وعندما بلغ الشيخ زروق أربعة وعشرين عاما، في سنة 870ه/1465م كان من أتباع الشيخ محمد الزيتوني، يتبع الطريقة الشاذلية، وكان على رأس زاويته في فاس، وكان رجلا كفيفا متصوفا، ذا شخصية قوية، مسيطرة، حادة الطبع، وقد كانت هذه السنة حاسمة في حياة الشيخ زروق، كما كانت سنة مضنية له أيضا. إذ ساءت فيها العلاقة مع شيخه الزيتوني(2).

ثم غادر الشيخ زروق فاس وذهب إلى تلمسان ومكث فيها أربعين يوما، ثم عاد إليها وتصالح مع أستاذه الزيتوني بعد مخاطر عديدة قابلته في رحلته وعناء شديد. ومكث في فاس بعدها ثلاث سنين، مشتغلا بالدرس والتأليف(3). وقد نقلوا عن شيخه الأول الزيتوني أنه قال فيه: "إنه رأس السبعة الأبدال، نفعنا الله تعالى به آمين." ولعل هذا كان في أخريات أمره(4).

انسحب الشيخ أحمد زروق من المجتمع بعد أن قوبل بما قوبل به، وما واجهه من صعوبة وسوء فهم. وتعرض له من المقاطعة الاجتماعية في بلده، ومما يؤكد ذلك أنه عندما دعاه صديقه ابن غازي مع آخرين إلى وليمة أقامها لهم، ولم يأت أحد سوى الشيخ أحمد زروق(5).

كما تعرض الشيخ زروق لأذى من قبل أبناء بلده، ومدينته؛ إذ تنكرت لـــــــه وأنكرته، وعقب ذلك فكر في القيام برحلة أخـــرى؛ إذ أن تفكيره وهمه للقيام بهذه الرحلة جـــــــــاء نتيجة المقاطعة الاجتماعية؛ فغادر الشيخ زروق بلدته متوجها إلى مصـــــر في رحلة ثانية، نظرا للرؤية الإصلاحية الجديدة التي حملها، وهي الرؤية التي خالفت مخالفة صـــريحة مـــا درج عليه منافسوه، ومن جانب آخر يمكن القول إن الرحـــــلة

1-علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 39، 40 .

2-عبد الله التليدي ، المرجع السابق ، ص148. علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص36، 37 .

3-المرجع نفسه ، ص41، 42 .

4- عبد الله التليدي، المصدر السابق، ص152 .

5- علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص54، عبدالسلام العمراني الخالدي ، الجواهير العجيبة من تآليف سيدي أحمد بن عجيبة، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص12، 13 .

الثانية للشيخ زروق إلى الديار المشرقية ولمصر بصفة خاصة قـــــــــد اختلفت اختلافا كليا عن الرحلة الأولى؛ إذ علم بقدومه علماء مصـــــــر، فخصوه باستقبال كبير، وأفسحوا له مجالس التدريس بالأزهر الشريف، التي كان يحضرها ما يقارب ستة آلاف شخص، كما أســـــــندوا إليه الفتوى وإمامة المالكية بالمشرق، فقد كانت للشيخ زورق صولة عند أمراء المصريين، وقبول عند الخاص والعام من أهل هذه الديـــــار، عكس ما كان له في ديار فاس(1).

وبعد غيبة سبع سنوات متوالية قضاها بين الترحال والدرس متنقلا بين ربوع الدول الإسلامية من مصر والحجاز، الشيخ أحمد زروق سبقته سمعته العلمية إلى فاس. وتظهر الطريقة التي استُقبل بها على أطراف مدينته في اليوم الأول لوصوله أنه لم يكن على علاقة طيبة بفقهاء فاس على الإطلاق، فالشيخ زروق كان دائم الهجوم على الفقهاء الجاهلين، والقراء المداهنين، والصوفية المنافقين، في كثير من مؤلفاته ورسائله(2).

لقد حز في نفس الشيخ زروق ما وصلت إليه الحال في بلاد المسلمين، وهو لا يملك لها تغييرا، فقد كان بين سنة 885-899ه/1480-1493م، متجردا سائحا باحثا عن الحقيقة. حيث قضى هذه الفترة متفرغا للجهاد الأكبر، ومُعرِضا عن الحياة الدنيا وعن أعراضها وأغراضها، وعن ذوي السلطان والنفوذ والجاه، الذين كانوا شهودا على الهزائم والنكبات المتتالية التي لحقت بالإسلام وبالمسلمين. وكان آخرها استيلاء الأسبان على آخر معقل للإسلام في الأندلس (غرناطة) سنة 897ه/1492م(3).

أصبحت الحياة في فاس بالنسبة للشيخ زروق – بعد قضاء أربع سنوات فيها كَدِرة مضنية. وكان عليه أن يقرر الهجرة من موطنه الأول، والبحث عن مستقر جديد له، كان قرارا قاسيا على نفسه بالطبع، لكن لا بد مما ليس منه بد، فغادر ملعب صباه ومرتع شبابه، مدينته التي تنكرت له وأنكرته مغادرة نهائية وإلى الأبد، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياته في المهجر ومن بحثه عن الأمان والطمأنينة(4).

1-عبد الله التليدي، المرجع السابق، ص148. علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 54. إدريس بو وانو، المرجع السابق، ص31، 32.

2-علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص 53، 54 .

3-محمد إدريس طيب، المرجع السابق، ص79.

4- علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص56 .

ثانيا: أسباب اختياره مصراتة مُقاما

قيل: إن في السفر سبع فوائد. ففيه تفريج الهموم، وطلب الرزق، وطلب العلم النافع، وتحصيل الآداب، وصحبة كرام الناس، واستجابة الدعاء، زيارة الأقارب والأصحاب، ويبدو أن الشيخ زروق قد تحصل من أسفاره على الكثير من هذه الفوائد، إذ أنه طاف مشارق الأرض ومغاربها(1). فهو يعرف أي مكان مناسب لمعيشته وهدوء نفسه بعد أن تكدر عيشه في بلده، فكان أقرب مكان يقصده هي مدينة بجاية حيث كان له رفاق وأتباع، فكان هناك سنة 884ه/1479 م، وأثناء إقامته في بجاية وصله كتاب من شيخه في القاهرة يخاطبه فيه بلهجة بالغة الحدة والقسوة، ولعل الحضرمي بلغه ما حدث لتلميذه في فاس، فلم يكن سعيدا به ولا راضيا عن مسلكه، فكتب إليه مؤنبا ومواسيا في الوقت نفسه. وقد أضافت هذه الرسالة هما آخر إلى هموم الشيخ أحمد زروق ، ولم يكن محتاجا إلى سواها لتحركه كي يسافر إلى القاهرة، حتى يطمئن من غضبة شيخه ويعيد المياه إلى مجاريها بينه وبين الحضرمي، فغادر بجاية سنة 884ه / 1479م ووصل القاهرية وتصالح مع شيخه الحضرمي(2).

1- أســـفاره: تعددت أسفار الشيخ زروق وسياحته من المغرب إلى المشرق والعكس، وكـــــان لذلك الأثر في علاقاته بأهل البلاد التي حل فيها، من فاس إلى تلمسان إلى بجاية ثم تونس وطرابلس والقــاهرة، إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، حتى عيذات (3) على ســـــــاحل البحر الأحمر وإلى واحة أوجلة (4) في الصحراء (5)، وقد كونت هذه الأســـــفار للشيخ أحمد زروق عنده معلومات وافية عن سكان البلاد التي زارهـــــا؛ ولكن الحيرة في المكان الذي سيتخذه مقرا جديدا ليقطن فيه؛ فالقرارات المصيرية تتطلب قوة وعزيمة وإرادة مـــــع نصح من لهم ثقة، فالشيخ زروق غادر موطنه، ولكن أين هي الجهة التي ستكون لـــــــه مســـــــكنا وملجأ؟ لدى وجد من يأخذ بيده ويوجهه نحو المكان الجديد الذي سيكون بلده الثاني.

1- التنبكتي ، المصدر السابق ، ص 133.عبد الله التليدي ، المرجع السابق، ص 149 .

2-علي فهمي خشيم ، المرجع السابق، ص 56 .

3-عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم، هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج 4،ص171 .

4-أوجلة: مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب ضاربة إلى البر ، وهي عامرة كثيرة النخل. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج1، ص276.

5- محمد إدريس طيب، المرجع السابق ، ص79.

2-أحوال مصراته زمن الشيخ زروق: كانت مصراته مركز تجمع مؤقت للبدو شبه الرحـــــــل، يأتون إليها من مواطنهم بين فترة وأخـــــرى، وهي مكان لبعض المزارعين، يتسوقون منها مـــــا يحتاجون إليه من مواد لم يكونوا ينتجونها بأنفسهم، ثم نما هذا المركز؛ بســـــبب موقعه المهم على طريق القوافل، ولقربه من البحر، وصلته بالبادية، فـــــي خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، فازدهرت علاقة مصـــــراته التجارية مع البندقية وجنوة، وقويت صـــــلة مينائها قصر أحمد بموانئ أوروبا وشمال أفريقيا. فمصراته بها قرى كثيرة في الســـــهل وعلى الجبل. وسكانها أغنياء، لا يدفعون خراجا، فوجود الأمن فيها خصوصا أمن طريق القوافل على الساحل جعل له أثراً في أن تكتسب مصراته موقعا تجارياً ممتازا . ومن المؤكد أن الشيخ زروق عرف البلدة وبعضا من أهلها أثناء سفره جيئة وذهابا(1).

3- سبب اختياره مصراته موطنا لـــــه : الشيخ زروق بعد زيارة القاهرية ومغادرتها نصحه الحضـــــــــــرمي بالبعد عن المدن المكتظة بالسكان المليئة بالمفاسد والآثام. فالشيخ قد مل فاس ، وضجت نفسه من القاهرة ، ولم يكن ليجد طرابلس أفضل منهما حالا. وكـــــــان يبحث عن مكان هادئ مريح، وكانت مصراته هي المكان الأمثل لما يعوزه، فهي نائية بقدر كاف عن أي مدينة كبيرة، وهي في الوقت نفســـــه لم تكن تخلو من مظاهر الحياة الثقافية والنشاط العلمي والجو الديني. وجدها هكذا الشيخ أحمد زروق سنة 88ه/1481م، لقد جذبته البســـاطة التي تتميز بها الحياة شبه البدوية وبذلك المجتمع غير المعقد الذي كان لا يزال محتفظا– في ذلك العهد- ببراءته وصفائه، ولم تشوهه مفاســـد المدينة وأخلاقها، فقد طبع أهلها على الحشمة واحترام الصـــالحين ومحبتهم، وكانت مصراتة تتمتع بإحســـــــاس ديني عميق، وتوقير للمتدينين والعلماء وأهل التصوف، يصل إلى حد التقديس. ولم تكن البلاد تخلو من الزهاد والمتصـــــــــوفة، وكان من عادات أهلها الســـــــفر إلى مختلف الأقطار، وكان كثيرون منهم قادرين على تأدية فريضة الحج، إذ أن بعضهم التقى بالشيخ زروق في القاهرة أو الحجاز، ورافقه، وقـــــد يكون بعضهم دعاه إلى بلده والإقامة فيها معهم في تلك الفترة الشديدة الاضطراب من حياته (2).

والشيخ اختار مصراته ليستقر بها(3) ويختارها مقرا له. ولم يغادرها سوى مرتين: الأولى إلى الجزائر ليرعى بعض شؤونه وشؤون أسرته ، والثانية لتأدية فريضة الحج للمرة الثالثة(4).

لقد وجد الشيخ زروق في مصراته المكانة الرفيعة والتوقير العظيم من أهل موطنه الجديد، بسبب مكانته العلمية وشهرته، وأصبح واحدا منهم، يتدخل في شؤونهم ويشاركهم حياتهم، ويتجمع الطلبة والمريدون من حوله، استقر المقام بالشيخ زروق في مصراته أخيرا وصار من أهلها، ثم تزوج من إحدى بناتهم هي أمة الجليل بنت أحمد بن زكريا الغلباني المصراتي، إضافة إلى زوجته الفاسية، فاطمة الزلاعية، التي لحقت به من المغرب (5).

1-علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص56-58 .

2- المرجع نفسه، ص 63، 65 .

3- نفسه، ص11 .

4-إدريس بو وانو، المرجع السابق ، ص32. علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص63- 65 .

5-المرجع نفسه، ص 63- 65.

رحبت مصراته بالشيخ أحمد زروق، ووقرته، وأصبح من أبنائها، لما تميزت به الحركة الفقهية الصوفية الإصلاحية التي قام بها، حيث انصبت على إصلاح الوضع الداخلي (الديني والاجتماعي) للأمة المغاربية والعربية والإسلامية، مقتفيا في ذلك أثر من سبقه من الفقهاء والصوفية، والمصلحين الاجتماعيين، الذين اكتفوا بالتدخل الديني والاجتماعي، (النصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) لحث الحكام على الاهتمام بشؤون المسلمين، دون أن يفكروا في يوم ما في التدخل السياسي. حيث فضل الشيخ أحمد زروق التدخل بالقلب واللسان على التدخل باليد والسيف؛ لأنه لم تكن له أطماع سياسية، وقد سبق أن رأى الاستغلال الذي تمارسه الحركات السياسية خصوصا المسلحة منها؛ لتحقيق أطماع ومصالح شخصية، مثل حركة الورياكلي، وحركة السياف؛ لذا كان طيلة حياته يهتم بالنصيحة للمسلمين وحكامهم، ويبتعد عن شق عصا الطاعة؛ لأنها فتنة لها آثار سلبية على وضع الاستقرار الداخلي، وتضعف قوة الأمة وتماسكها أمام الأطماع الخارجية، التي كانت تتمثل آنذاك في احتلال البرتغال والأسبان للشواطئ المغربية، فقد بقي الشيخ أحمد زروق مواظبا على النصح للأمة - خاصتها وعامتها- طوال حياته(1).

وفاته رحمة الله عليه: كما لكل بداية ختام ، ولكل حياة مـــــــوت يعقبها ، جاءت ساعة الرحيل للشيخ الجليل أحمد زروق الذي توفي في صفر سنة 899هـ/1493م بتكرين من قرى مسراتة (2) من عمل طرابلس الغرب، وقبره مشهور بها، ومزارة مقصودة للوفود، رحل الشيخ الذي يعد إماماً وحجة من حجج الله تعالى، وآية من آياته، وكانت وفاته بتكرين(الزورق)، توفي الشيخ زروق ولقي ربه في خلوته، وعمره أربع وخمسون عاما، تاركا وراءه تراثا ضخما (3)، وصيتاً واسعاً.

1- أحمد زروق، شهاب الدين أبي العباس أحمد زروق ، النصـــــــــــائح الزروقية، تحقيق وجمع محمد إدريس طيب ، حفيد الشـــــــيخ أحمد زروق ، كتاب- ناشـــــرون، بيروت- لبنان، ص3، 4 .

2-أحمد زورق، النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، ذكرت باسم" ... توفي بمسراطة من عمل طرابلس..."، ص14 .

3-التنبكتي، المصدر السابق، ص132. إدريس بو وانو، المرجع السابق، ص 32. عبد الله التليدي، المرجع السابق، ص 153 . علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص65.

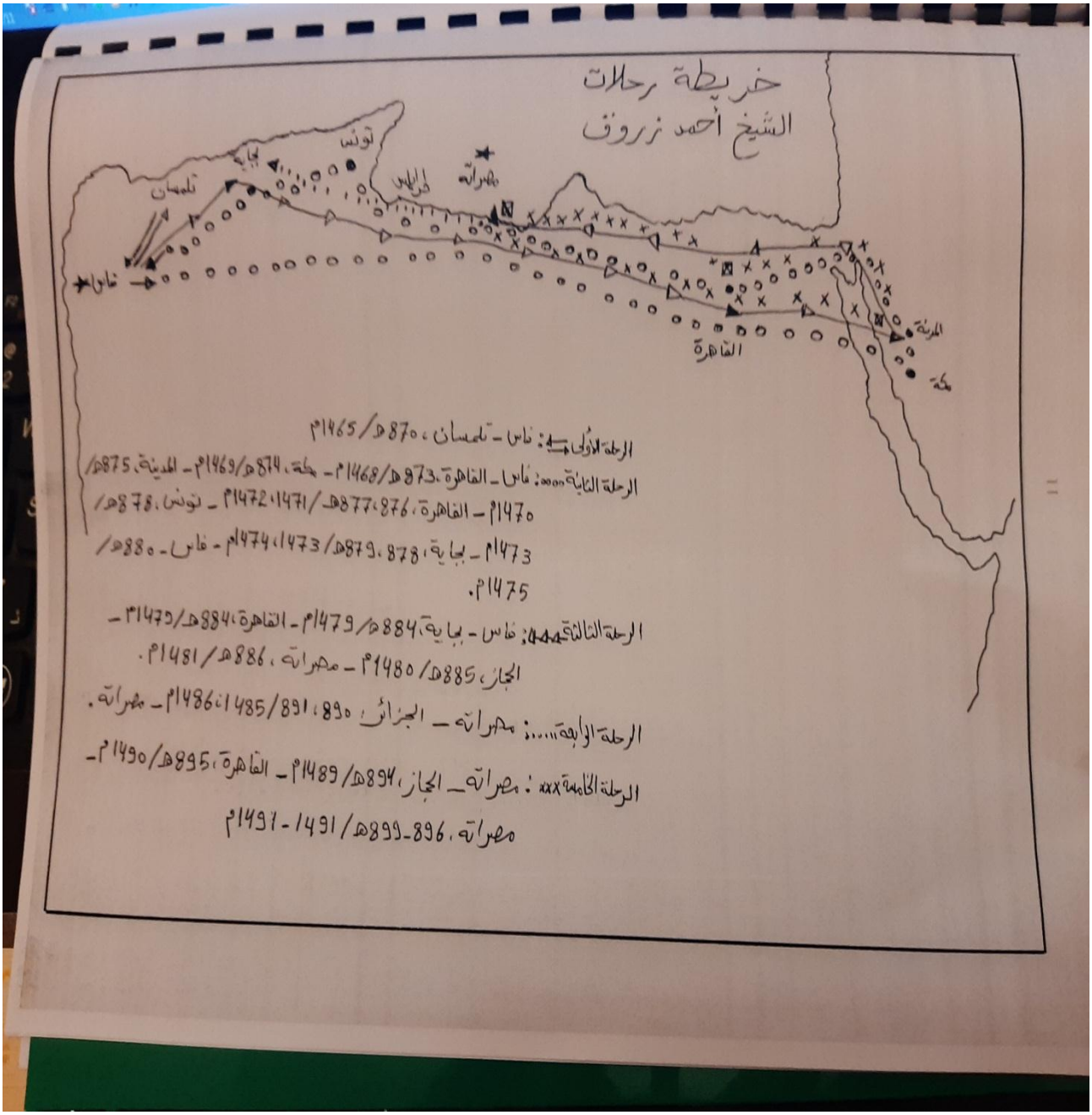
خريطة رحلات
الشيخ أحمد زروق
تونس
بجاية
تلمسان
الجزائر
مصراتة
فاس
القاهرة
المدينة
مكة
الرحلة الأولى: فاس - تلمسان، 870هـ/1465م
الرحلة الثانية: فاس - القاهرة، 873هـ/1468م - مكة، 874هـ/1469م - المدينة، 875هـ/1470م - القاهرة، 876، 877هـ/1471، 1472م - تونس، 878هـ/1473م - بجاية، 878، 879هـ/1473، 1474م - فاس - 880هـ/1475م.
الرحلة الثالثة: فاس - بجاية، 884هـ/1479م - القاهرة، 884هـ/1479م - الحجاز، 885هـ/1480م - مصراتة، 886هـ/1481م.
الرحلة الرابعة: مصراتة - الجزائر، 890، 891هـ/1485، 1486م - مصراتة.
الرحلة الخامسة: مصراتة - الحجاز، 894هـ/1489م - القاهرة، 895هـ/1490م - مصراتة، 896-899هـ/1491-1491م

الخاتمة :

1- المتتبع لشخصية الشيخ زروق يجد فيها قوة في الحق وعزيمة في الإرادة وصبراً على الابتلاء والنصح بالحسنى، مبتعد عن المجادلات التي لا تعود بالفائدة على الأمة الإسلامية، لقد أنعم الله سبحانه عليه بموهبة استخدمها في التأليف والنصح، الشيخ أحمد زروق قوي الشخصية، لا يخاف في الحق لومة لائم، ولا ينافق في آرائه.

2-كان لتربيته الأولى آثار على شخصيته، فقد أهلك الطاعون والداه فربته جدته الفقيهة، التي دفعته للتعلم، وشجعته على الدخول في طريق العلم، ثم كان ذلك من بعض شيوخه الذي رحبوا به واعتنوا به.

3-أفاد الشيخ أحمد زروق من ترحاله، فقد جعله معروفاً في العالم الإسلامي، مع تعرُّفه على شخصيات إسلامية مرموقة مشهود لها في مجالات العلوم المختلفة.

4-تركه لفاس كان بضغوط اجتماعية وجحود له ونكران، فاضطر للرحيل عنها واختار بلدة هادئة بعد نصيحة من صديقه، اختار مصراتة لتكون المقر والإقامة.

5-وجد الشيخ أحمد زروق في مصراتة الأمان والطمأنينة، اللذين افتقدهما في فاس مع ترحيب ومحبة سكان مصراتة له، عكس ما كان من سكان فاس. حتى صار الشيخ كأحد أبناء مصراته وصاهرهم، وكان يشاركهم حياتهم الاجتماعية، إضافة إلى نصائحه الدينية التي كانوا يأخذون بها.

6-يشهد التاريخ لسكان مصراتة أنهم كانوا على قدر من العلم والتصوف، مع تداول الأموال فيها بينهم، فهم يعدون في مستوى جيد من العيش، وقد وفر لهم هذا التفكير في العلم بدل البحث عن لقمة العيش، فأسس الشيخ أحمد زروق في مصراته، مكانا يرتاده كل طالب علم، وكان له أتباع اتبعوا طريقته في مجالات الحياة المختلفة.

7-فارق الشيخ الحياة وهو في خلوته، وهذا يدل على أنه كان كثير التأمل والتذكر والعبادة، مبتعدا عن مباهج الحياة، فلم يعش رحمه الله إلا أربعاً وخمسين سنة ، قضاها في العلم والنصح والترحال.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

1- أحمد زروق،شهاب الدين أبي العباس، النصائح الزروقية، ت899ه/ 1493م، تحقيق وجمع محمد إدريس طيب ، حفيد الشيخ أحمد زروق، كتاب- ناشرون، بيروت- لبنان(د. ت).

2-.....النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية، دراسة وتحقيق وتخريج عبدالمجيد خيالي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان(د.ت).

3-.....فوائد من كناش، ت 899ه/1493م ، تحقيق محمد إدريس طيب ، حفيد الشيخ أحمد زروق، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان، (د.ت).

4- التنبكتي ، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ت 963ه/ 1039م، عناية وتقديم عبدالحميد عبدالله الهرامة، منشورات دار الكاتب ، طرابلس- ليبيا، ط2، 2000م.

5-السلاوي،أبي العباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدرعي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ت 1315ه/ 1900م ، اعتنى به محمد عثمان، دار الكتب العلمية ، بيروت(د.ت)، ج1، 4.

6-ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي ، دار صادر ، بيروت ، 1397ه/ 1977م ، مج 1، 4، 5.

المراجع:

1-إدريس بو وانو ، ملامح الفكر المقاصدي في الخطاب الصوفي عند الشيخ أحمد زورق، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان(د،ت).

2-عبد السلام العمراني الخالدي ، الجواهير العجيبة من تآليف سيدي أحمد بن عجيبة،دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان(د،ت).

3- عبد الله بن عبدالقادر التليدي ، المطرب في مشاهير أولياء المغرب، شركة البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، دار الأمان ، الرباط- المغرب، ط4، 1424ه/2003م.

4- علي فهمي خشيم، أحمد زروق والزروقية ، دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة، دار المدار الإسلامي، ط2، 2002م.

5-محمد إدريس طيب حفيد الشيخ أحمد زورق، المدرسة الزروقية الشيخ أحمد زروق محتسب العلماء والأولياء الجامع بين الشريعة والحقيقة، تحقيق نسبه ومدرسته الصوفية ، طبعة مزيدة ومنقحة ، كتاب- ناشرون ، بيروت – لبنان، ط2، 2008م.

6-محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ت1360ه/1941م، خرج حواشيه وعلق عليه عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان (د،ت) ، ج1.